تاريخ ما بين السطور

سنغافورة .. الجحيم الأخضر

من هِرّةٍ وادعة إلى نمرٍ يزأر في وجه التاريخ

رمضان مصطفى سليمان

لم تكن سنغافورة، تلك الجزيرة التي تتلألأ اليوم كجوهرةٍ على جبين العالم، سوى ظلٍّ خافتٍ في ذاكرة الإمبراطوريات، ومرفأٍ متعبٍ ترسو عنده سفن الطامعين، وتتناوبه أمواج الأطماع كما تتناوب الليل والنهار. يطلقون عليها في أيامنا هذه النمر الآسيوي الأول، لقبٌ يحمل في طيّاته زهو النهوض، وقوة التحوّل، وعبقرية الإرادة. لكنها لم تكن كذلك دائمًا؛ بل كانت، في زمنٍ قريبٍ نسبيًا، هِرّةً مستكينة، تخفض رأسها تحت وطأة الاستعمار البريطاني، وتعيش على هامش التاريخ، حتى إذا ما دقّت طبول الحرب العالمية الثانية، تغيّر وجهها، وانقلبت معادلاتها، وبدأت قصة أخرى تُروى بمداد الدم والعرق.

*

قالت صديقتي المشاغبة، وهي تعبث بطرف دفترها كأنها تستفزّ الحكاية لتبوح:

إننا نعرف سنغافورة اليوم يا صديقي، نعرفها ناطحات سحاب، وأسواقًا تضج بالحياة، وموانئ لا تنام... لكن كيف كانت حين كانت ترزح تحت الاستعمار البريطاني؟

نظرتُ إليها طويلًا، ثم ابتسمت ابتسامةً غامضة، كأنني أُخفي خلفها زمنًا كاملًا.

قلت :

ليس من سمع كمن رأى يا صديقتي.

توقفت أناملها، وارتسم في عينيها بريق فضولٍ ممزوجٍ بشيءٍ من القلق :

تعني ماذا يا صانع المتاعب ؟

أجبتها، وأنا أستحضر في ذهني مشاهد لم تُعش بعد :

أعني أن الحكايات لا تُفهم من خلف الزجاج. ما رأيكِ أن نزورها ؟ لا كما هي الآن، بل كما كانت... حين كانت هِرّةً مستكينة تحت أقدام المستعمر.

ارتجفت قليلًا، ليس خوفًا، بل رهبةً من اقتراحٍ بدا كأنه يفتح بوابةً في الزمن :

وهل سنقدر ؟

قلت بثقةٍ لا أدري من أين جاءتني :

سنفعل. سنعود إلى عام 1941... إلى قلب العاصفة، إلى زمنٍ كانت فيه الحرب العالمية الثانية تلتهم الأرض كما يلتهم الجوعُ خبز الفقراء.

*

كانت الطائرة، إن جاز تسميتها كذلك، أقرب إلى صندوقٍ معدنيٍّ يرتجف في حضن الريح. أصوات المحركات كزئيرٍ متقطع، ورائحة الوقود تختلط بقلقٍ لا يُخفى. جلست صديقتي إلى جواري، تمسك بيدي وكأنها تتمسك بخيط النجاة الوحيد.

همست:

هذه ليست طائراتنا يا صديقي... أشعر أنني في جنازةٍ معلّقة في السماء.

ابتسمت رغم خوفي، وقلت :

لقد حذّرتكِ. طائرات 1941 لا أمان لها... وقد أعذر من أنذر.

لكن داخلي كان يقول شيئًا آخر. كنت أتساءل: لماذا نحن هنا ؟ ما الذي يدفع إنسانًا إلى اقتحام الماضي ؟ أهو الفضول ؟ أم رغبةٌ دفينة في فهم كيف يُصنع المجد من رماد الهزائم ؟

تذكرت قول الشاعر:

وما نيلُ المطالبِ بالتمنّي ولكن تؤخذُ الدنيا غلابا

فهمت حينها أن سنغافورة لم تصبح نمرًا لأنها حُلِمت بذلك، بل لأنها عاشت الألم حتى صار قوة.

*

اهتزت الطائرة فجأةً، فصرخت صديقتي :

ماذا يحدث ؟ !

لم أجد جوابًا، فنهضتُ متثاقلًا نحو مقصورة القيادة. لم يكن هناك مضيفون، ولا تعليمات، ولا أيّ شيءٍ من رفاهية زمننا. طرقت الباب، ففتح الطيار بوجهٍ شاحبٍ وعيونٍ مرهقة.

قلت :

سيدي، ما الذي يحدث ؟

نظر إليّ نظرةً سريعة، ثم عاد إلى أجهزته التي بدت بدائيةً إلى حدٍّ مخيف :

يا آنسة... يا سيدي... نحن في حرب.

ثم أضاف بصوتٍ أثقلته الحقيقة :

الممرات الجوية مليئة بالشراك. طائرات اليابان المقاتلة تملأ السماء، ومدافع بوارجهم تجوب المحيطات كأنها وحوشٌ تبحث عن فريسة. احمدوا الله أننا لم نسقط بعد.

عدت إلى مقعدي، وصديقتي تنظر إليّ بعينين دامعتين :

ماذا قال ؟

أجبتها بهدوءٍ مصطنع :

قال إننا أحياء... حتى الآن.

ضحكت ضحكةً قصيرة، ثم قالت :

أكرهك عندما تختصر الكارثة في جملة.

*

حين اقتربنا من سنغافورة، لم تكن تلك الصورة التي نحفظها في أذهاننا. لم تكن مدينة الضوء، بل مدينة الظلال. دخانٌ يتصاعد من أماكن متفرقة، وأصوات انفجارات بعيدة، وميناءٌ يعجّ بالسفن العسكرية.

هبطنا أخيرًا، وكأن الأرض احتضنتنا بعد خصام. نزلنا من الطائرة، وأنا أشعر أنني لا أهبط على أرضٍ، بل على صفحةٍ من كتابٍ مفتوح على فصلٍ دموي.

قالت صديقتي وهي تدير رأسها في كل اتجاه :

أهذه هي سنغافورة ؟ !

قلت :

هذه هي... حين كانت تُختبر.

*

سرنا في شوارعها، فكانت الوجوه متعبة، والعيون مشدودة نحو السماء. البريطانيون منتشرون في كل مكان، جنود بملامح متجهمة، وأوامر تُلقى بلا اكتراث.

اقترب منا رجلٌ آسيوي، يبدو من أهل البلاد، وملامحه تحمل تعب السنين. قال بصوتٍ خافت :

أنتما غريبان هنا... أليس كذلك ؟

أجبته :

نعم، نحن زائران... نبحث عن الحقيقة.

ابتسم ابتسامةً حزينة :

الحقيقة؟ الحقيقة هنا ثقيلة... أثقل من أن تُحمل في كلمات.

سألته صديقتي :

كيف تعيشون ؟

تنهد، ثم قال :

نعيش كما تعيش الأشجار في العواصف... لا نملك إلا أن نصمد.

ثم أضاف :

البريطانيون يقولون إنهم يحموننا... لكننا نشعر أننا مجرد موقعٍ استراتيجي في حربٍ لا تخصنا.

*

جلستُ في زاويةٍ قريبة، وأخذت أدوّن. كنت أكتب لا بيدي فقط، بل بقلبي. شعرت أنني أقترب من عقلية هذا المكان، من روحه التي تُعجن بالألم.

قلت في داخلي :

كيف تتحول الهزيمة إلى بداية ؟ كيف يُصنع النمر من هِرّة ؟

جاءني الجواب من أعماقي :

حين لا يبقى للإنسان شيءٌ يخسره، يبدأ في بناء كل شيء .

*

في تلك الليلة، سمعنا دويّ القصف أقرب من أي وقتٍ مضى. كانت اليابان تقترب. الخوف يملأ الأرجاء، لكن في عيون الناس شيءٌ آخر... شيءٌ يشبه الإصرار.

قالت صديقتي :

هل سيُهزم البريطانيون ؟

قلت :

ربما... وربما في الهزيمة بدايةٌ أخرى.

قالت :

تقصد أن سقوطهم قد يكون خلاصًا ؟

أجبتها :

أحيانًا، لا يولد الفجر إلا من أحلك اللحظات.

*

ومرت الأيام، وكأنها سنوات. رأينا المدينة وهي تتبدل، والوجوه وهي تتغير، والخوف وهو يتحول إلى وعي.

وفي لحظةٍ صامتة، أدركت أن سنغافورة لم تكن ضحيةً فقط، بل كانت تتعلّم. كانت تخزّن الألم، وتحوّله إلى دروس.

تذكرت قول الحكيم :

الشدائد تصنع الرجال، كما تصنع النار الذهب .

*

حين عدنا إلى زمننا، كانت صديقتي صامتة. لم تعد تلك المشاغبة التي تسأل بلا توقف. كانت تفكر.

قلت لها :

ماذا تعلمتِ ؟

نظرت إليّ، وقالت :

تعلمت أن المجد ليس هدية... بل نتيجة.

ثم أضافت :

وتعلمت أن النمور لا تولد نمورًا... بل تُصنع.

ابتسمت، وقلت :

لهذا سُمّيت سنغافورة النمر الآسيوي الأول.

*

وفي أعماقي، كنت أعلم أن الحكاية لم تنتهِ. فكل مدينةٍ عظيمة تحمل في داخلها قصة سقوطٍ قبل النهوض، وجرحًا قبل القوة.

وكتبت في دفتري :

هنا، في هذا الركن من العالم، تعلّمت أن التاريخ ليس مجرد ماضٍ، بل هو مرآةٌ نرى فيها كيف نصبح ما نحن عليه .

ثم ختمت ببيتٍ من الشعر :

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وهكذا، بقيت سنغافورة... قصةً تُروى، ودرسًا لا يُنسى، ونمرًا لا يزأر إلا لأنه عرف يومًا كيف يكون صامتًا.

جزيرة اللوزة... سيرة بحرٍ يسكن فينا

وحمدنا الله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه، ثم ساد بيننا صمتٌ قصير، كأنّه استراحة محاربٍ بين معركتين: معركة الطريق، ومعركة النفس. التفتُّ إلى زميلتي وقد انعكس في عينيها زرقة البحر الممتدّ بلا نهاية، فقلتُ بنبرةٍ تختلط فيها الحيرة بالدهشة :

والآن، أيها الصديق ... إلى أين من هنا ؟

ابتسمت ابتسامةً خفيفة، تحمل شيئًا من السخرية الهادئة، وقالت :

إلى أين ؟ أليس من البداهة أن نبدأ بجولةٍ في المدينة ؟ أم أنك لا ترى ما أرى ؟

توقفتُ، وكأن سؤالها سحبني من سطح الأشياء إلى عمقها. نظرت حولي، لا بعين السائح، بل بعين الباحث عن المعنى. كان كل شيء يوحي بأننا لسنا في مدينة بالمعنى الذي ألفناه؛ لا شوارع تنتهي إلى ساحات، ولا أزقة تنفتح على أسواق. بل كنا في فضاءٍ غريب، تتداخل فيه اليابسة بالماء، حتى يكاد البحر يكون هو الأصل، وما عداه فرعٌ عابر.

قالت، وقد بدا عليها أنها سبقتني إلى هذا الاستنتاج :

واضحٌ أننا لسنا في مدينة، بل في ما يشبه الجزيرة... بل هي جزيرة بالفعل، أو ما يشبه الجزيرة. صغيرة، على شكل لوزة، طولها اثنان وأربعون ميلًا، وعرضها اثنان وعشرون. انظر... البحر في كل مكان، تحت أقدامنا، وأمام أعيننا، وفي امتداد خيالنا.

توقفت لحظة، ثم أضافت بصوتٍ خافت، كأنها تخاطب نفسها :

ما من شارعٍ هنا إلا وينتهي بالبحر، وما من زقاقٍ إلا ويقود إليه، وما من شاطئٍ إلا وهو مزدحم بكل أنواع السفن... بخارية، شراعية، تجارية، وسياحية. كأن العالم كله جاء ليُرسِي هنا.

قلتُ وأنا أمعن النظر في الأفق :

كأن البحر هو اللغة الوحيدة التي يفهمها هذا المكان.

أجابتني :

وربما هو القدر أيضًا.

ثم التفتت إليّ فجـأة، وقـد عادت إلى عمليتها الفكرية الصارمة :

لكننا لا نستطيع أن نضرب في أنحاء الجزيرة هكذا بلا دليل. لا بد لنا من دليل... ودليلٍ مثقف.

في تلك اللحظة، شعرتُ بأن الرحلة لم تعد جغرافية فقط، بل صارت رحلةً في المعرفة، وربما في الذات. كم من مرةٍ نضلّ الطريق لأننا نرفض أن نعترف بحاجتنا إلى من يدلّنا ؟

ولم يطل بحثنا، حتى عثرنا على ضالتنا في رجلٍ يقف أمام مكتبةٍ صغيرة، تفيض رفوفها بكتبٍ صفراء الأوراق، كأنها تحكي تاريخًا لا يريد أن يُنسى. كان وجهه يحمل ملامح الحكمة، وعينيه تلمعان ببريقٍ خافت، بريق من عاش طويلًا مع الكتب.

قال لنا، بعد أن عرف مقصدنا :

كنتُ مدرسًا للتاريخ في إحدى المدارس الثانوية... في الصين.

اقتربت زميلتنا منه، وقد اشتعل فضولها، وسألته :

صينيّ أنت يا سيد... فو وونج ؟

ابتسم ابتسامةً فيها شيءٌ من الاعتزاز، وقال :

نعم، ولذلك سأبدأ معكم من الحي الصيني.

*

دخلنا الحي الصيني، وكان الدخول إليه كالدخول إلى زمنٍ آخر. كل شيء هناك يثير الدهشة، بل يوقظ في النفس شعورًا مزدوجًا: الحنين والنفور معًا. الألوان زاهية، والروائح مختلطة، والأصوات متداخلة، كأن المكان سيمفونيةٌ فوضوية.

قالت زميلتنا، وقد اتسعت عيناها :

كأننا في الصين !

أجاب فو وونج، بصوتٍ يحمل نبرة تاريخٍ مثقلٍ بالجراح :

هذا طبيعي، يا آنسة. فسنغافورة... كانت يومًا من أملاك الصين. لكن بريطانيا نهبتها في غفلةٍ من الزمان، واستقرت بها لأكثر من قرنين.

توقف قليلًا، ثم أضاف بنبرةٍ أشدّ :

تركت هذا الحي على حاله... أو ربما تركته يتدهور عمدًا. القذارة، والعادات السيئة، والفقر... كلها ليست صدفة.

شعرتُ أن كلماته لا تصف مكانًا فقط، بل تكشف سياسة. وكأن التاريخ هنا ليس مجرد أحداث، بل جراح مفتوحة.

سألته :

ولماذا يتردد بعض رجال الجيش الإنجليزي إلى هذا الحي... في سرية ؟

نظر إلينا نظرةً عميقة، ثم قال :

لأنهم لا يأتون بحثًا عن الطعام فقط، بل عن شيءٍ آخر ؛ عن عصافير الليل، من الصينيات الجميلات.

ساد الصمت بيننا، كأن الحقيقة سقطت علينا فجأة، بلا مقدمات. ثم قال، وكأنه يخاطب ضمير العالم :

أرأيتم كوارث الاستعمار ؟ إن تردّي حال سكان هذا الحي، والحي الهندي أيضًا، هو أفضل دعاية ضد الاستعمار... دون أن ينطق أحد.

*

في تلك اللحظة، شعرتُ بأن شيئًا في داخلي ينكسر. لم أعد أرى المكان بعين السائح، بل بعين الإنسان. وتساءلت في داخلي :

هل نحن شهود، أم شركاء في الصمت ؟

تذكرت قول الشاعر :

بلادي وإن جارت عليّ عزيزةٌ

وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرامُ

لكن ماذا عن بلادٍ سُرقت ؟ وعن أهلٍ أُهينوا ؟

قالت زميلتنا، بصوتٍ متردد :

دعنا نغادر هذا الحي القذر... ومعذرةً للكلمة يا سيد فو.

نظر إليها فو وونج، ثم قال بهدوءٍ عميق :

لا تعتذري... فالقذارة ليست في الكلمة، بل في الواقع.

*

خرجنا من الحي، لكن الحي لم يخرج منا. كان يسكننا، كذكرى ثقيلة، أو كدرسٍ لا يُنسى. وسرتُ إلى جوار زميلتي، وأنا غارق في حوارٍ داخلي :

ما معنى أن ترى الظلم ؟ هل يكفي أن تشاهده ؟ أم أن المعرفة نفسها مسؤولية ؟

تذكرت حكمةً قديمة :من رأى منكم منكرًا فليغيره...

لكن كيف نغيّر ما هو أكبر منا ؟ هل بالكلمة ؟ أم بالصمت الذي يفضح ؟

نظرتُ إلى البحر من جديد، فوجدته كما هو... لا يتغير. لكنني أنا... لم أعد كما كنت.

*

قالت زميلتي، بعد صمتٍ طويل :

هل لاحظتَ كيف أن البحر هنـا... يبدو جميلًا، رغم كل شيء ؟

قلتُ :

ربما لأن الجمال لا يلغي الألم، بل يجاوره.

ثم أضفت، وكأنني أكتشف الفكرة لأول مرة :

أو لأن الإنسان، مهما تلوث واقعه، يظل يبحث عن شيءٍ نقي.

ابتسمت، وقالت :

كأننا نبحث عن أنفسنا، لا عن المدينة.

*

وفي تلك اللحظة، أدركت أن الرحلة لم تكن إلى سنغافورة، ولا إلى جزيرة اللوزة، بل كانت إلى أعماقنا نحن.

وكان البحر... شاهدًا.

سنغافورة بين رائحتين

حكاية الأرواح العالقة بين الكاري والعطر الفرنسي

لم تكن المدينة تُرى بالعين وحدها، بل تُستنشق، تُحَسّ، وتُعاش كأنها كائنٌ يتنفس بين زمنين. قال دليلنا بصوتٍ مشبعٍ بتجربةٍ لا تخطئها النبرة :

لن تجدا الحي الهندي أفضل من هذا الحي...

وكان صوته ينزلق بين الأزقة كقطرة زيت في قدرٍ يغلي، فيما كانت الروائح تتصاعد من كل حدبٍ وصوب؛ رائحة الكاري المكتنز بالتوابل، فواكه شرقية ذات عطرٍ نافذ كأنها تُقطف من حدائق ألف ليلة، ممزوجة بعرق العمال ووجوه المتسولين التي حفرتها الحياة حفراً.

ذلك الحي لم يكن مجرد مساحة، بل كان اختصاراً للإنسان حين يُختزل إلى حاجته الأولى: البقاء.

كنت أسير بجانب صديقتي، وكانت ملامحها تجمع بين الفضول والحذر، كمن يقرأ كتاباً قديماً يخشى أن تسقط صفحاته بين يديه. همست :

كأننا نسير داخل بطن التاريخ...

فأجبتها :

بل داخل قلبه... حيث الألم أكثر صدقاً من الروايات.

ثم أشار دليلنا، فو وونج، بيده كمن يقطع بخنجرٍ غير مرئي خطاً فاصلاً بين عالمين :

وذلك... هو الحي الأوروبي.

تبدّل الهواء فجأة، كما لو أن المدينة بدّلت جلدها في هذا الحي . لم تعد الروائح حادة ولا صاخبة، بل صارت ناعمة، مُهذّبة، مدروسة. عبير الزهور يمتزج بعطورٍ تشبه رسائل حبٍ قادمة من لندن وباريس.

الشوارع نظيفة كضميرٍ لم يُختبر، مرصوفة بإتقان، وإشارات المرور تقف كالجنود المنتظمين، لا تعرف الفوضى. الفيلات الأنيقة تحيطها الخضرة، كأن الطبيعة هنا خادمة وليست شريكة.

في تلك اللحظة، شعرت بشيءٍ ينقبض في داخلي.

هل النظافة دليل حضارة ؟ أم أن الحضارة قناعٌ نظيف لواقعٍ قذر ؟

قال فو وونج مبتسماً :

أما الفنادق، فلا تقل روعة عن فنادق فيينا ولندن وباريس... تستقبل المرموقين، والسيدات الأنيقات في أذرعهم، كأن العالم لا يعرف الحرب.

ثم أضاف بنبرةٍ خفيفة :

ما رأيكما في جلسة بمطعم أنيق، يدعونه هنا: منظر البحر ؟

ابتسمت صديقتي، وقالت :

اسم شاعري...

فقال :

والمنظر أشعر.

ثم خفّض صوته قليلاً :

لكن... لا يسمحون بدخول غير الأوروبيين.

سكت لحظة، ثم تابع :

غير أنكما... تحملان تصريحاً من التاريخ.

توقفت صديقتي فجأة، والتفتت إليه بعينين متسعتين :

سمّ الخياط ؟ هذه عبارة لا يقولها إلا مسلم... هل أنت مسلم ؟

هنا تغيّر شيءٌ في وجهه، شيءٌ عميق، كأن طبقةً من الصمت انزاحت عن روحه.

قال بهدوء :

مسلم... والحمد لله.

ثم نظر حوله كمن يخشى أن تلتقط الجدران صوته :

اسمي عبد الرحمن وونج... درست في الأزهر... لكنني هنا... مجرد فو وونج.

في تلك اللحظة، شعرت بثقلٍ نفسي يهبط على صدري.

كيف يعيش الإنسان بنصف اسمه ؟ وكيف يقسم روحه بين حقيقتين ؟

قال بصوتٍ خافت :

ما في القلب... في القلب.

فقلت مبتسماً :

تماماً.

*

دخلنا المطعم.

وكان المشهد أشبه بلوحةٍ أوروبية معلّقة على جدار آسيا. الموسيقى ناعمة، الأضواء دافئة، والبحر يمتد خلف الزجاج كمرآةٍ للأحلام.

السفن تتهادى فوق الماء، ومن بينها قوارب صينية تقليدية، كأنها بقايا ذاكرةٍ ترفض أن تغرق.

جلست، وأحسست بشيءٍ غريب.

لماذا يبدو الجمال أحياناً كذبةً متقنة ؟

همست صديقتي :

الرجل هناك... ينظر إلينا.

نظرت.

كان في الأربعين، ملامحه مشدودة، كأنها تحمل حرباً خاصة بها.

قلت :

يبدو أنه يريد الحديث.

اقترب بالفعل، وقال بأدب :
هل تسمحون لي بمشاركتكم ؟
وافقت بحذر.
جلس، وقال :
أنا جيمي كلوفر... محرر صحيفة أخبار الملايو.
ثم أضاف، كمن يكاد ينفجر :
أكاد أختنق من الغيظ.
سألته :
ولماذا ؟ الناس هنا سعداء...
ابتسم بسخرية مريرة :
سعداء ؟
ثم قال :
الجاهل في نعيم... لكنه نعيمٌ هش.
اقترب منا قليلاً، وخفّض صوته :
ألا ترون ؟ الحرب تشتعل منذ عامين...
قلت :
لكن سنغافورة آمنة... هكذا قيل لنا.
ضحك، ضحكة قصيرة كطعنة :
خدعة...
ثم قال ببطء، كأنه يزن كلماته :
إنهم ينسون اليابان...

*

في تلك اللحظة، شعرت بأن الهواء تغيّر.
لم يعد ناعماً، بل صار ثقيلاً، مشحوناً بشيءٍ غير مرئي.

نظر كلوفر إلى البحر، وقال :

أتعرفون ما أخشاه ؟ ليس الحرب... بل الغفلة.

ثم أردف :

حين يرقص الناس على حافة الهاوية...

سكت. ثم تمتم :

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

قلت له :

هذا شعر عربي...

قال :

تعلمت قليلاً... يكفي لأفهم أن الحضارات لا تسقط فجأة... بل تنام أولاً.

*

نظرت إلى عبد الرحمن وونج.

كان صامتاً. لكن عينيه... كانتا تقولان كل شيء. **كان يعيش بين عالمين، لكنه يرى الحقيقة في كليهما.**

في داخله، كان هناك صراع :

هل أظل صامتاً... أم أتكلم ؟ هل أحتمي... أم أُحذر ؟

وكان صوته الداخلي يقول :

ومن لم يذق مرّ التعلم ساعةً تجرّع ذلّ الجهل طول حياته

ثم رفع رأسه، وقال بهدوء :

الحرب لا تأتي فقط بالسلاح... بل تأتي حين يظن الناس أنهم بمنأى عنها.

*

في تلك الليلة، لم يكن المطعم مجرد مكان. كان مسرحاً.

ثلاثة رجال، وثلاثة عوالم :

رجل يحمل اسماً خفياً

- رجل يرى الحقيقة ويخشى أن لا يصدقه أحد
- ورجل... مثلي... يحاول أن يفهم

أما صديقتي، فكانت تنظر إلينا جميعاً، كأنها تسأل :

من منا يملك الحقيقة ؟ ون منا يهرب منها ؟

*

انتهت الجلسة... لكن الحكاية لم تنتهِ.

خرجنا، والبحر ما زال هناك. هادئاً. كأنه لا يعرف ما سيأتي.

لكنني، لأول مرة، شعرت أن هذا الهدوء... ليس طمأنينة. بل انتظار.

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وكانت سنغافورة ...تقف بين رائحتين :

رائحة الكاري... ورائحة العطر الفرنسي...

وبينهما ...حقيقةٌ لا تُشم... بل تُكتشف.

رقصة على حافة العاصفة

سنغافورة بين وهم الطمأنينة وهدير الحرب

كانت الليلة تلمع ببريق خادع، كأنها مرآة صقيلة تعكس وجهًا لا يخصها. الأضواء المتدلية من سقف القاعة تترقرق كنجوم مصطنعة، والموسيقى تنساب ناعمة كجدول لا يعرف أن خلف الأفق ينتظره طوفان. في تلك الزاوية من العالم، حيث كانت سنغافورة تتزين كعروس مترفة، كان الخوف يُخفي نفسه في ثياب الوقار، ويتوارى خلف ضحكات النخبة وضجيج كؤوس البلور.

قرأوا في النشرات السياحية أن الجنوب محروسٌ بما لا يُقهر: أكبر مدرعات الإمبراطورية البريطانية، عشرة آلاف جندي، مدافع لا تنام، وحاملتا طائرات تشقان البحر كأنهما جناحان لفكرة الخلود. قالوا إن الحرب بعيدة، وإن الخطر لا يجرؤ أن يقترب من هذا الحصن المتخم بالثقة. لكن الكلمات، كما يعلم كلوفر، قد تكون أقنعة، واليقين أحيانًا ليس سوى جهلٍ منمق.

وقف كلوفر قرب النافذة، يحدّق في البحر الممتد كصفحة داكنة، كأنها ذاكرة العالم. لم يكن ينظر إلى الماء بقدر ما كان ينظر إلى نفسه، إلى تلك الهشاشة التي يخفيها خلف سخرية لاذعة. كان صحفيًا، لكن مهنته لم تكن مجرد نقل الأخبار، بل حمل القلق كرسالة، وفضح الوهم كخطيئة لا تُغتفر.

اقتربت منه صديقته، وكانت ملامحها مشدودة بين فضول وخوف. قالت بصوت خفيض، كأنها تخشى أن تسمعها الجدران :

أحقًا ترى ما لا يرونه ؟ أم أنك تهوّل الأمر كعادتك ؟

التفت إليها ببطء، وفي عينيه بريق يشبه نارًا خفية :

بل الخطر أقرب مما يتصور هؤلاء المترفون ، العائشون في أحلامهم الوردية . هذه الحرب، يا عزيزتي، لم تنشب عبثًا. إنها ليست صراع حدود، بل صراع شهية... شهية إمبراطوريات تلتهم العالم.

سكت لحظة، ثم أضاف بنبرة أكثر عمقًا :

الملايو، وسنغافورة قلبها النابض... هل تظنين أن اليابان أو ألمانيا ستغفلان عن نصف قصدير العالم؟ عن مليون ونصف فدان

من المطاط؟ إن لم تكن هذه الأرض في قائمة أهدافهم، فسأعتزل الصحافة وأكتب الشعر في مديح الغباء.

ابتسمت رغم قلقها، وقالت :

ولماذا أثار مقالك كل هذا الغضب ؟

ضحك ضحكة قصيرة، كأنها كسر زجاج :

لأني قلت الحقيقة. قلت إن سبعًا وعشرين سفينة حربية يابانية تقترب من بحر الصين. والحقيقة، كما تعلمين، لا تُغتفر في مجالس السعادة المصطنعة.

ارتجف صوتها :

تعني... أنها ستهدد سنغافورة ؟

اقترب منها قليلًا، وخفض صوته :

بل تعني أن الرقص الذي ترينه الآن قد يتحول إلى صراخ. وأن الموسيقى ستغرق في دوي المدافع. يا آنسة... الانفجار ليس احتمالًا، بل موعد.

وفي تلك اللحظة، كأن القدر أحب أن يختبر صدق النبوءة، اقترب منهما رجل ذو هيئة مهيبة، يرافقه ظل من السلطة. كان سير بروك، قائد كبير في البحرية، رجلًا تعود أن يرى العالم من على سطح السفن، لا من بين كلمات الصحفيين.

قال ضاحكًا، لكن في صوته شيء من الحذر :

لا تفسد السهرة يا كلوفر. لقد ضاق الجميع بمقالتك الأخيرة. معلوماتك... لنقل إنها غير دقيقة. أم أنك تستقي أخبارك من إذاعات برلين وطوكيو ؟

رفع كلوفر حاجبيه، وفي داخله صراع خفي بين الرغبة في السخرية والرغبة في الصراخ. قال :

أعجب كيف تقول هذا، يا سير بروك، وأنت قائد أسطول. معلوماتي ليست مجرد شائعات. العجيب أن لندن لم تبلغك بها بعد... لتستعد للهول القادم.

للحظة، اهتزت ثقة الرجل، وإن حاول أن يخفي ذلك بابتسامة مشدودة :

لو كانت صحيحة، لأبرقوا إلينا. نحن لسنا معزولين عن العالم. ثم قل لي، بم تنصحنا أيها الصحفي المرتعد؟

ابتسم كلوفر، لكن ابتسامته كانت كحد السكين :

أنصح قائد الأسطول ؟ نحن في حرب يا سير بروك، ولسنا في مباراة جولف. النصيحة هنا ليست لعبة، بل نجاة.

ضحك القائد، محاولًا استعادة توازنه :

آه، وبمناسبة الجولف... لا تنس أن بيني وبينك ثأرًا. سأنتظرك غدًا في الملعب. هذه المرة سأهزمك.

نظر إليه كلوفر طويلًا، ثم قال بصوت هادئ كأنه يأتي من مكان بعيد :

الأفضل لك، يا سير بروك، أن تجعل همك هزيمة الأسطول الياباني... إن كان لا يزال هناك وقت.

*

في تلك اللحظة، انقسم العالم داخل عقل كلوفر إلى نصفين: نصف يرقص، ونصف يحترق. كان يسمع الموسيقى، لكنه كان أيضًا يسمع دويًا بعيدًا، كأنه صدى المستقبل. تساءل في داخله :

هل أنا مبالغ ؟ أم أنهم نائمون ؟ هل الحقيقة قاسية إلى هذا الحد، أم أن الوهم لذيذ إلى هذا الحد ؟

تذكر عبارة قديمة كان يرددها أستاذه :

أخطر ما في الإنسان أنه يصدق ما يريد، لا ما هو كائن.

تمتم لنفسه :

نعم... هذا هو. إنهم لا يرون لأنهم لا يريدون أن يروا.

عاد إلى النافذة، ونظر إلى البحر. كان ساكنًا، لكن سكونه لم يكن طمأنينة، بل انتظارًا. وكأن البحر نفسه كان يهمس :

أنا أحمل السفن... كما أحمل النهايات.

في داخله، دار حوار آخر، أعمق وأشد قسوة :

ماذا لو كنت مخطئًا ؟ وماذا لو كنت محقًا ؟ أيهما أخطر ؟

أن تخيف الناس بلا سبب... أم أن تطمئنهم وهم يسيرون نحو الهلاك ؟

أغمض عينيه، كأنه يحاول الهروب من ذاته، لكنه وجد نفسه يغرق أكثر.

*

في زاوية أخرى من القاعة، كانت صديقته تراقبه. لم تكن تخاف الحرب بقدر ما كانت تخاف ذلك التحول الذي طرأ عليه. لم يعد الرجل الذي تعرفه؛ صار أثقل، أعمق، كأنه يحمل زمنًا كاملًا فوق كتفيه.

اقتربت منه مجددًا، وقالت :

كلوفر... لماذا أنت واثق إلى هذا الحد ؟

نظر إليها طويلًا، ثم قال :

لأنني لا أنظر إلى ما هو ظاهر، بل إلى ما وراءه. لأن التاريخ... لا يعيد نفسه، بل يكرر أخطاءه.

ثم أضاف، وكأنه يقتبس من ذاكرة بعيدة :

ومن لم يعتبر بالأمس... أعادته الأيام إلى الدرس ذاته، ولكن بثمن أفدح.

*

ومع تصاعد الموسيقى، بدا المشهد كأنه مسرحية عبثية: ضباط يضحكون، نساء يرقصن، وصحفي يرى نهاية العالم في كل خطوة. كان التناقض صارخًا، كأنه لوحة سريالية رسمها قدر ساخر.

قال كلوفر فجأة، كأنه يخاطب الجميع :

أتدرون ما المشكلة ؟ ليست في الحرب... بل في إنكارها.

سكتت الموسيقى لحظة، أو هكذا بدا له، ثم عاد كل شيء كما كان. لم يسمعه أحد... أو لم يريدوا أن يسمعوا.

*

في تلك الليلة، كتب في دفتره :

رأيت مدينة ترقص فوق بركان، ورأيت رجالًا يضحكون في وجه الموج. لم يكن الخطر في البحر، بل في العيون التي أغلقت نفسها. إن الكارثة لا تأتي فجأة، بل تُمهَّد لها الطرق بالصمت.

ثم أضاف بيتًا من الشعر، كأنه يودع شيئًا لا يعرفه :

إذا نامت العيون عن العواصفِ أيقظتها الرياح بلا اعتذارِ

وأغلق الدفتر، لكنه لم يغلق القلق.

*

وفي أعماقه، كان صوت خافت يردد :

الحقيقة لا تحتاج إلى من يصدقها... بل إلى من يحتملها.

وكان كلوفر، رغم كل شيء، يعرف أنه قد اختار أن يحتمل.

سنغافورة بين الوهم والاقتراب
همس العاصفة في صالونات الأمان

في اليوم التالي، لم تكن المدينة كما تركناها بالأمس. شيء خفيّ، كظلّ غيمةٍ بعيدة، تمدّد في أروقة البيوت، وتسلّل إلى النوافذ، واستقرّ في صدور الناس دون استئذان. تحرّكت الهيئات المدنية كأنها تستجيب لنداء غير مسموع، وانعقدت الجمعيات النسائية في جلسات سريعة متلاحقة، أشبه بخلايا نحلٍ دبّ فيها قلقٌ مفاجئ، فأخذت تُنتج، لا عسلاً، بل قراراتٍ وتهيؤاتٍ واستعدادات.

قالت لي صديقتي، وهي تُسرع في ارتداء قفازها الأبيض، بينما كانت عيناها تلمعان بحماسة لا تخلو من ارتباك :

ما رأيك يا صديقتي أن تحضري معي إحدى تلك الجلسات ؟ لعلّك تأتينني بما يؤكد أو ينفي مخاوف الصحفي جيمي كلوفر.

تأمّلتها لحظة. لم يكن السؤال بريئًا تمامًا؛ كان يحمل في طيّاته اختبارًا خفيًا: هل أنا من أهل الاطمئنان أم من أنصار الشك ؟

قلتُ بهدوء :

هل تريدينني شاهدة أم مشاركة ؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت :

كمراقب فقط... لكني سأترك لك مهمة البحث والتقصي والاستجواب.

في تلك اللحظة، شعرتُ بشيءٍ يتململ في داخلي. كنتُ أعلم أنني، وإن دخلتُ بصفة مراقب، فلن أخرج كما دخلت. فالمراقبة الحقيقية ليست حيادًا، بل غوصٌ في الأعماق، ومواجهةٌ مع الذات قبل الآخرين.

*

ذهبنا إلى جمعية الخدمة الاجتماعية النسائية. كان المبنى يعجّ بالحركة، كخلية نحلٍ حقيقية. سيدات أنيقات، وآنسات جميلات، أكثرهن من عائلات اعتادت الرفاه، واعتادت أن تُنهي نهارها بين ملاعب التنس وحمامات السباحة في النادي الكبير المواجه للبحر.

لكن اليوم، لم يكن في الوجوه ذلك الصفاء المترف. كانت الابتسامات مشدودة، والضحكات قصيرة، والنظرات تتقاطع بسرعة كأنها تخشى أن تُمسك بشيءٍ لا تريد الاعتراف به.

في داخلي، دار حوار صامت :

هل هذا هو الخوف حين يتخفّى في ثياب النظام؟ هل يمكن للقلق أن يرتدي قبعة أنيقة ويجلس على كرسيٍ مُذهب دون أن يفضح نفسه ؟

اقتربت صديقتي من سيدة وقور، تمسك بيدها أوراقًا كثيرة، تتنقل بها بين الغرف صعودًا ونزولًا، في حماسٍ لا يخلو من توتر.

قالت لها صديقتي، بنبرة استعجال :

أرجوك يا آنسة، نودّ إجراء حوار سريع.

رفعت السيدة رأسها، وبدت عليها ملامح الضيق :

أرجوكِ، لا وقت لدينا لإجراء حوارات.

تدخلت صديقتي، وكأنها تلقي حجرًا في ماءٍ ساكن :

بسبب الحرب التي تقترب من سنغافورة ؟

تغيّرت ملامح السيدة فجأة، وكأن كلمة الحرب صفعة غير متوقعة. قالت بحدة مكبوتة :

أرجوكِ، لا تثيري شائعات لا ضرورة لها.

في تلك اللحظة، شعرتُ بانقسام داخلي. جزء مني أراد أن يهدّئ الموقف، وجزء آخر كان متعطشًا لكشف الحقيقة، مهما كانت قاسية.

لكن صديقتي لم ترحمها، وسألتها بخبثٍ محسوب :

وهذه الأوراق التي تحملينها... أهي قوائم توزيع أعضاء الجمعية على الجهات العاملة في خدمة المجهود الحربي ؟

ترددت السيدة لحظة، ثم قالت، وكأنها تستسلم لحتمية البوح :

نعم... هذه القوائم تشمل توزيع السيدات والآنسات على مراكز التدريب، وعلى التمريض في المستشفيات، ومصانع الأغطية للجنود. لسنا أقل من الرجال عطاءً في مثل هذه الظروف.

ثم أضافت، بنبرة فيها شيء من التحدي :

لقد علمتُ أن بعض عضوات الجمعية المنافسة ذهبن للتدريب مع رجال المطافئ.

تدخلت صديقتي سريعًا :

وهل يعني هذا أنكم تتوقعون حرائق كثيرة ؟ ففي زمن الحرب، لا تكون الحرائق إلا من القنابل... قنابل الأعداء.

ساد صمتٌ قصير، ثقيل، كأن الزمن توقف ليراقب ردّ الفعل.

قالت السيدة، محاولة استعادة توازنها :

يا آنسة، البرنامج الروتيني لكل الجمعيات يشمل مثل هذه الأنشطة. ولا يعني هذا وجود أي خطر.

في داخلي، ضحكتُ ضحكةً مرة :

كم من الكوارث تبدأ بعبارة : لا خطر على الإطلاق !

قالت صديقتي :

هذه أخبار مطمئنة... لكنها تخالف ما تذيعه وكالات الأنباء، خاصة عن اقتراب السفن الحربية اليابانية من سواحل الملايو.

هنا، لم تستطع السيدة إخفاء اضطرابها. اقتربت منها، وخفضت صوتها :

هل أنتِ من صحيفة أخبار الملايو ؟ ألم تقرئي عدد اليوم ؟

كلا... هل معك نسخة ؟

قرأتها مصادفة... قبل أن يُصادر العدد.

اتسعت عينا صديقتي :

صودر ؟ ولماذا ؟

في تلك اللحظة، شعرتُ أن الهواء نفسه أصبح أثقل. كأن الحقيقة، حين تقترب، تُربك حتى الأوكسجين.

قالت صديقتي، بنبرة تحمل تحديًا فكريًا :

لماذا يا سيدتي ؟ كيف تتصورين أن تترك اليابان سنغافورة، هذه الفريسة الدسمة، دون أن تستولي عليها وتجعلها قاعدة لأسطولها وطيرانها ؟

ارتبكت السيدة، ثم قالت، وكأنها تتمسك بجدارٍ يتداعى :

لا... لن يجسر اليابانيون حتى على الاقتراب. سنغافورة هي المعقل الآمن الوحيد في هذه المنطقة. لا خطر علينا بالمرة.

*

حين خرجنا من المبنى، كان المساء قد بدأ ينسج خيوطه فوق المدينة. البحر في الأفق بدا هادئًا، على نحوٍ مُريب.

سألتني صديقتي :

ما رأيك ؟

لم أجب فورًا. كنتُ غارقة في حوار داخلي لا يهدأ :

هل الطمأنينة التي سمعناها كانت قناعة... أم دفاعًا نفسيًا؟ هل البشر يكذبون على غيرهم، أم على أنفسهم أولًا ؟

ثم قلت :

أظن أن الخطر ليس فقط في اقتراب العدو... بل في إنكارنا لاحتمال اقترابه.

نظرت إليّ طويلاً، ثم قالت :

تقصدين أن الخوف الحقيقي هو ما لا نعترف به ؟

أجبت :

بل ما ندفنه تحت عباراتٍ جميلة.

*

في تلك الليلة، لم أستطع النوم. كانت كلمات السيدة تتردد في رأسي :

لا خطر علينا بالمرة...

لكن شيئًا أعمق كان يهمس :

كل مدينة تعتقد أنها آمنة... حتى يُكتب عليها أن تتعلّم معنى الهشاشة.

تساءلت :

ماذا لو كانت سنغافورة، بكل صلابتها، مجرد وهمٍ مُتقن ؟

وماذا لو كانت تلك الجمعيات، بكل نشاطها، محاولة لتأجيل مواجهة الحقيقة ؟

في أعماقي، بدأت أرى المشهد بشكل مختلف: لم تكن تلك السيدات مجرد متطوعات، بل كائنات بشرية تقاوم، كلٌّ بطريقتها، فكرة النهاية.

إحداهن تختبئ في العمل. أخرى في التنظيم. وثالثة في الإنكار.

أما أنا... فكنت أختبئ في الأسئلة.

*

الحكمة التي استقرّت في داخلي تلك الليلة لم تكن مريحة :

حين يقترب الخطر، لا ينقسم الناس إلى شجعان وجبناء... بل إلى من يرى، ومن يختار ألا يرى.

وسنغافورة، في تلك اللحظة من التاريخ، كانت مدينة تُغمض عينيها... بينما العاصفة تفتح ذراعيها.

حين يخذل الغرور الحصون
حكاية سنغافورة بين وهم الأمان وصوت الحقيقة

لم تكن الحرب دائمًا صوت المدافع، ولا أزيز الطائرات وحده ما يُنذر بالسقوط، بل قد تبدأ في همسةٍ خافتة داخل النفس، حين يتسلل الوهم إلى العقول فيلبس هيئة يقينٍ راسخ، ويغدو الغرور عقيدة لا تُمس. وهكذا، في تلك الأيام الثقيلة من عام 1941، كانت سنغافورة تبدو كجزيرةٍ مطمئنةٍ في بحرٍ مضطرب، بينما كانت العاصفة تتشكل بعيدًا، بصمتٍ محسوب، في غرفٍ مغلقة، حيث كان القرار يُصاغ ببرودةٍ لا تعرف التردد.

في أقصى الشرق، جلس الجنرال توجو، وعيناه لا تعرفان الارتباك. لم يكن رجلاً يرفع صوته، بل كان من أولئك الذين تُخفي ملامحهم السكون عاصفةً من التصميم. أمامه خريطةٌ كبيرة، تتناثر عليها النقاط الحمراء كجمرٍ خافت، وكل نقطةٍ تحمل مصير مدينة، أو ربما حضارة.

قال بصوتٍ منخفض، لكنه حاسم :

لا ينبغي أن ينتهي يناير دون أن تكون الملايو وسنغافورة في قبضتنا.

لم يكن أمرًا عسكريًا فحسب، بل كان إعلانًا عن قدرٍ قادم، كُتب بالحبر البارد، وسيُقرأ بالنار.

*

في مكانٍ آخر، بعيدًا عن صرامة الخرائط، داخل متجرٍ فاخر في سنغافورة، كانت الحياة تمضي بنعومةٍ مخادعة.

أضواء دافئة، أقمشة فاخرة، عطورٌ خفيفة تعبق في الهواء، وأصوات نساءٍ يتحدثن عن الرحلات، والموضة، والمناسبات. لم يكن هناك ما يوحي بأن العالم على شفا انهيار.

اقتربت البائعة بابتسامةٍ مهنية :

أهلاً بكِ، ليدي أكسويث، يشرفني خدمتك.

رفعت السيدة رأسها، وكانت في عينيها مسحة قلقٍ لم تنجح الأناقة في إخفائها :

أريد معطف رحلات.

تجمدت البائعة لحظة ، كأنها سمعت جملةً خارجة عن السياق :

معطف... رحلات ؟ لا تقولي إنك ستغادرين سنغافورة !

ابتسمت الليدي ابتسامةً باهتة :

سأسافر إلى أستراليا... إلى سيدني، لأكون مع ولدي.

اقتربت البائعة أكثر، وكأنها تريد أن تُقنعها قبل أن تفهمها :

ولكن لماذا ؟ نحن هنا في أمان. سنغافورة حصنٌ لا يُخترق. يقولون إننا نستطيع الصمود لعشرين عامًا ! لدينا كل شيء... الطعام، الماء، الذخيرة...

صمتت الليدي لحظة، ثم قالت بهدوءٍ أثقل من الضجيج :

أعلم... لكن الأمان ليس دائمًا حيث يقولون، بل حيث يطمئن القلب. وقلبي... ليس هنا.

كان هذا الحوار، الذي نُشر في إحدى المجلات، يبدو آنذاك كحكايةٍ اجتماعيةٍ عابرة، لكنه في الحقيقة كان مرآةً لشيءٍ أعمق :

انقسامٍ خفي بين من يصدق الرواية الرسمية، ومن يشعر—بحدسٍ لا يُفسر—أن شيئًا ما ليس على ما يرام.

*

وفي تلك الليلة، ليلة الخامس من ديسمبر، حين انشق الصمت عن أول دويٍّ حقيقي، لم يكن الانفجار في السماء فقط، بل في عمق الوهم ذاته.

رنّ الهاتف في مكتب الجنرال بيرسفال.

رفع السماعة، بصوتٍ متعب لكنه متماسك :

القيادة العامة.

جاءه صوت زوجته ، مرتعشًا :

وليم... هل حدث شيء ؟ هذه الانفجارات...

توقف لحظة. لم يكن الجواب صعبًا، بل كان سهلًا جدًا— وهنا تكمن الخطورة.

اطمئني يا عزيزتي، مجرد تدريبات.

سكتت لحظة، ثم قالت بصوتٍ خافت :

ظننت... أن اليابانيين اقتربوا.

ابتسم، رغم أنها لا تراه :

اليابانيون ؟ هم أجبن من أن يحاولوا ذلك. نامي.

أغلق الهاتف، وبقيت الكلمات تتردد في ذهنه.

أجبن ؟

تساءل داخليًا، للحظةٍ خاطفة. ثم طرد الفكرة سريعًا، كمن يغلق نافذةً دخل منها هواء بارد. لا... نحن الأقوى. نحن الإمبراطورية.

لكن صوته الداخلي لم يكن بنفس الثقة.

*

في اليوم التالي، انعقد المؤتمر الصحفي.

قاعةٌ مليئة بالوجوه المتوترة، وأقلام الصحفيين كانت كالسيوف، تنتظر لحظة الانقضاض.

دخل بيرسفال، بخطواتٍ محسوبة، لكن شيئًا في ملامحه كان مكسورًا، ولو بشكلٍ خفي.

بدأ حديثه :

أيها السادة، لا داعي للقلق...

توقف لحظة، كأن الكلمات لم تعد تُطيع بسهولة.

بل لا يوجد أي سبب للذعر. والدليل... أنني سأذهب اليوم مع عائلتي للنادي، ثم للصيد.

تبادل الصحفيون نظراتٍ صامتة.

رفع جيمي كلوفر يده، بابتسامةٍ لا تخلو من التحدي: وماذا عن الانفجارات، سيدي ؟

نظر إليه بيرسفال، وكأنه يزن كلماته بدقة :

أي انفجارات؟ تلك التي كتبت عنها ؟ أم تلك التي كانت تدريبات ؟

رد كلوفر بهدوءٍ قاتل :

وأيها الحقيقة ؟

لم يجب مباشرة.

داخل عقل بيرسفال، كان الحوار مختلفًا تمامًا :

إن اعترفت... سينهار كل شيء. لكن إن أنكرت... ربما نكسب وقتًا. أم أننا فقط نؤجل السقوط ؟

كان الصراع داخليًا، لا يُرى، لكنه كان أعنف من أي معركة.

قال صحفي آخر :

ماذا عن الأخبار التي تؤكد نزول القوات اليابانية في الملايو ؟

سكت بيرسفال. للحظةٍ، فقط.

ثم قال :

لقد استعدنا السيطرة.

ارتفعت همهمة خافتة.

تقدم كلوفر خطوة :

إذاً لماذا مُنعت الصحف من نشر ذلك ؟

لم يجب فورًا.

وفي داخله، كان الصوت يعود :

لأننا خائفون... لا، لأننا نحمي الناس .أم لأننا نحمي أنفسنا من الحقيقة ؟

ثم جاء السؤال الذي كسر الإيقاع :

ماذا لو عبر اليابانيون مضيق جوهور ؟

تغير وجه بيرسفال.

لم يكن السؤال عسكريًا، بل كان وجوديًا.

اقترب من الخريطة، وأشار إليها :

هذا مستحيل.

لكن صوته لم يكن واثقًا كما أراد.

وفي تلك اللحظة، لم يكن من ينظر إلى الخريطة يرى خطوط الدفاع، بل يرى حدود الوهم.

*

في الخارج، كانت الحياة لا تزال مستمرة.

نساء يتبضعن . أطفال يضحكون . رجال يتحدثون بثقة عن مستقبلٍ مضمون. لكن الحقيقة كانت تزحف، ببطءٍ، بثبات، دون أن تحتاج إلى إذن.

*

وفي مكانٍ ما، في سفينةٍ متجهة إلى سيدني، كانت ليدي أكسويث تنظر إلى البحر.

لم تكن خائفة. بل كانت تفكر :

هل أنقذت نفسي ؟ أم هربت من وهمٍ لم يعد يحتمل ؟

ثم أغمضت عينيها.

ولأول مرة منذ أيام... شعرت بشيءٍ يشبه السلام.

*

أما سنغافورة، فبقيت هناك، بين صوتين :

صوت يقول : نحن بخير.

وصوت آخر، أعمق، يهمس : ليس بعد الآن.

الحكمة التي تخرج من بين الركام :

ليست الحصون ما يحمي المدن، بل صدق الرؤية.
وليس أخطر من عدوٍ يهاجمك، إلا وهمٌ يقنعك أنه لن يفعل.

سنغافورة على حافة الغرور
حوار في ظل الخرائط والكارثة

في تلك القاعة التي كانت تضجُّ بأصداء الحبر والخرائط، حيث تتناثر على الطاولات خطوطٌ متقاطعة كأنها شرايين إمبراطورية مترامية، التفَّ الصحفيون حول الجنرال بيرسفال كما تلتفُّ الأسئلة حول مصيرٍ لم يُحسم بعد. كان الهواء مشبعًا برائحة الورق والقلق، وتحت ضوءٍ باهتٍ يميل إلى الصفرة، بدت الوجوه وكأنها أقنعةٌ لقلوبٍ متحفزة، تترقب ما سيقوله الرجل الذي يحمل على كتفيه ثقل مدينةٍ بأكملها.

وقف بيرسفال أمام خريطة سنغافورة، أصابعه تتحرك ببطءٍ فوق خطوطها، كأنها تحاول أن تُقنع الحضور – وربما نفسه – بأن هذه الحدود المرسومة قادرة على أن تردَّ القدر.

قال بصوتٍ متماسك، وإن كان يخفي ارتجافة خفية :

انظروا إلى موقع المدينة... إنها في نهاية الطرف الجنوبي الشرقي لشبه جزيرة الملايو، تمتد أربعين ميلًا من الشرق إلى الغرب، واثنين وعشرين ميلًا إلى الجنوب، وتطل على بحر الصين من ناحية الجنوب الشرقي... ومن الشمال يفصلها مضيق جوهور، هذا الشريان المائي الذي لا يتجاوز عرضه ألفًا ومئة متر. فكيف – بالله عليكم – يمكن لليابانيين أن يفكروا في المخاطرة ومحاولة العبور ؟

كانت كلماته أشبه بجدارٍ لفظي، لكنه جدارٌ بدا لبعض الحاضرين هشًّا، كأنه مبنيٌّ من يقينٍ مُستعار.

تقدم كلوفر، الصحفي الذي اشتهر بحدة نظره قبل حدة قلمه، وسأل بنبرةٍ لا تخلو من التحدي :

وماذا لو جاءونا عبر الغابات الماليزية ؟

سكن المكان لحظة، كأن السؤال لم يكن مجرد احتمال، بل ثقبًا في جدار الثقة.

ابتسم بيرسفال ابتسامة باردة، وقال :

هذه الغابات في أيدي قواتنا، يا عزيزي كلوفر.

لكن أحد الصحفيين، وقد بدا أن شكوكه تتجاوز حدود اللباقة، قاطعه :

وماذا لو صارت في أيدي اليابانيين ؟

هنا، ارتسمت على وجه الجنرال لمحة ضيق، لكنه أجاب بسرعة، كمن يريد أن يدفن السؤال قبل أن يتجذر :

هذا لن يحدث بالطبع.

لم يكن الرد مقنعًا، بل كان أشبه بعبارة تُقال لتسكين القلق لا لمواجهته.

تبادل الصحفيون نظراتٍ صامتة، ثم جاء صوتٌ آخر، أكثر جرأة :

ولماذا لا يحدث؟ لقد علمنا أن الجيش البريطاني لا يمتلك دبابة واحدة ولا سيارة مدرعة في غابات الملايو... بل إن ثغر جوهور بارو، الذي يحمي المضيق، عارٍ من أي دفاع بري أو جوي.

في تلك اللحظة، بدا أن الخرائط على الطاولة لم تعد خطوطًا جامدة، بل صارت اعترافاتٍ صامتة.

قال كلوفر، وهو يحدق في بيرسفال :

جنرال بيرسفال، ما قاله مراسل التايمز صحيح.

تصلب الجنرال قليلًا، ثم قال بصوتٍ حاول أن يجمع بين الحزم والتبرير :

أجل... أجل... لكن...

لكن هذه اللكن لم تكن جسرًا، بل كانت هاوية.

تعالت أصوات الاستنكار، كأنها موجٌ يرتطم بسفينةٍ متعبة، ومع ذلك واصل بيرسفال حديثه، متشبثًا بما تبقى من سلطته: لكن هذا لا يمثل أي خطر على سنغافورة. فإن كل خبراء الحرب البريطانيين، ومعهم مستشارو رئيس الوزراء تشرشل، يؤكدون أن الوحدات المدرعة لا تصلح للحرب في الغابات. إن لنا – أيها السادة – وسائلنا الخاصة لحماية مواقعنا في غابات الملايو.

ضحك بعض الصحفيين، لا من باب السخرية وحدها، بل من باب اليأس الذي يتخفى في شكل تهكم.

قال أحدهم :

وماذا مثلًا يا جنرال ؟

أجاب آخر، بنبرةٍ لاذعة :

بنادق أنفيلد التي استخدمت في الحرب العالمية الأولى عام 1914 ؟

وأضاف ثالث، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مرة: أم سينشر جنودنا مسحوق النوم على رؤوس الجنود اليابانيين إذا تجاسروا واقتربوا من الغابات ؟

تغير وجه بيرسفال، واحمرَّت عيناه بشيءٍ من الغضب المكبوت :

أرجوكم... أرجوكم، كفوا عن السخرية. يجب أن تثقوا في قدرتنا العسكرية. ويؤسفني ألا أوضح لكم حقيقة هذه القدرات، لأنها من الأسرار التي نحرص على ألا تتسرب إلى العدو.

لكن الحقيقة – كما أدرك بعضهم – لم تكن سرًا، بل كانت غيابًا.

تقدمت صحفية شابة، كانت حتى تلك اللحظة صامتة، وقالت بصوتٍ هادئ لكنه نافذ :

الطيران مثلًا يا جنرال ؟

تنفس بيرسفال بعمق، كأنه وجد أخيرًا أرضًا يقف عليها :

من بينها، دون شك. طائراتنا أكثر عددًا من طائرات اليابان في أقرب مطار إلينا.

لم تمضِ لحظة حتى جاء رد كلوفر، كالسهم :

أكثر في العدد ربما... ولكن هل تتفوق على طائرات الزيرو اليابانية؟ بحق السماء، لا تقل إن طائراتنا من طراز بفالو الثقيلة، القديمة، البطيئة، قادرة على مواجهة الزيرو.

في تلك اللحظة، لم يكن السؤال مجرد مقارنة تقنية، بل كان مواجهةً بين واقعٍ يُرى ووهمٍ يُراد تصديقه.

قال بيرسفال بضيق :

كلوفر، هل تعرف – أو لا تعرف – أن مدى طائرات الزيرو، رغم سرعتها وقدرتها على المناورة، لا يسمح لها بالاقتراب من سنغافورة ؟

لكن الصحفية نفسها عادت، بإصرارٍ لا يلين :

حتى لو افترضنا ذلك... فماذا لو جاء اليابانيون عبر غابات الملايو ؟

ساد صمتٌ ثقيل، كأن السؤال بات قدرًا لا يمكن تجاهله.

قال بيرسفال، هذه المرة ببرودٍ يكاد يكون دفاعيًا :

سيقفون حيارى أمام مضيق جوهور. فإذا حاولوا عبوره بالقوارب، فستنهال عليهم قذائفنا وتغرق القوارب في جولة واحدة.

هنا، لم يعد كلوفر قادرًا على كبح ما في داخله :

جنرال... هذا المضيق، دون حماية فعالة بالدبابات من ناحية الغابات، يغدو... مجرد فِرْكَة كعب. بل يمكن عبوره سباحة، يا جنرال.

كان في صوته شيءٌ من الحزن، كأنما يرى ما لا يريد الآخرون رؤيته.

انفجر بيرسفال أخيرًا :

إنكم ترغمونني – من أجل أن أطمئنكم – على أن أبوح لكم بسر عسكري خطير! سنغافورة، أيها الأحباء، ليست معرضة لأي خطر.

توقف لحظة، ثم أضاف، وكأنه يلقي بورقةٍ أخيرة: غدًا ستصل إلى الميناء أعظم قطعتين بحريتين في أسطولنا البريطاني العظيم... البارجة أمير ويلز، وزميلتها البارجة ريبالس.

*

لكن خلف هذا الإعلان، كان عقل بيرسفال يغلي بأسئلةٍ لا يجرؤ على نطقها.

هل يكفي حضور البوارج لردع حربٍ تتحرك في الأدغال؟ هل يمكن لهيبة الإمبراطورية أن تعوض نقص الاستعداد؟ أم أنني... أنا... أقود مدينةً كاملة نحو مصيرٍ لم أستعد له ؟

كان يعلم، في عمقٍ لا يصل إليه صوته العلني، أن الخرائط لا تحارب، وأن الخطوط المستقيمة لا تمنع زحفًا يأتي من حيث لا يُتوقع.

ورأى – في خياله – الجنود اليابانيين، لا يعبرون البحر، بل ينسلون عبر الغابات، كأشباحٍ تعرف الأرض أكثر مما يعرفها من يدافع عنها.

هل نحن ندافع عن سنغافورة... أم عن وهمٍ صنعناه لأنفسنا ؟

في تلك اللحظة، لم يعد الحوار في القاعة مجرد نقاشٍ صحفي، بل صار مرآةً لانقسامٍ داخلي: بين ما يُقال وما يُخفى، بين ما يُراد تصديقه وما يُخشى الاعتراف به.

*

خرج الصحفيون من القاعة، وكلٌّ يحمل في داخله قصة مختلفة.

أما بيرسفال، فبقي واقفًا أمام الخريطة. لم يعد يشير إليها. بل كان ينظر إليها... كما ينظر إنسانٌ إلى قدره، حين يبدأ في التشكل.

*

إن أخطر ما يواجه الأمم في لحظات الحسم ليس ضعف السلاح، بل قوة الوهم. فحين تُستبدل الحقائق بالثقة العمياء، وحين يُقمع السؤال باسم الهيبة، يصبح السقوط ليس احتمالًا... بل نتيجة مؤجلة.

وسنغافورة – في تلك اللحظة – لم تكن مجرد مدينة على الخريطة، بل كانت درسًا في أن الغرور العسكري قد يكون أعمى من أن يرى الطريق الذي يأتي منه الخطر.

سنغافورة... حين ينهار الوهم

في تلك اللحظة المشحونة بين الخوف والرجاء، كان الهواء نفسه يبدو كأنه يترنّح فوق رؤوس الحاضرين، مثقلاً بقلقٍ مكتومٍ ظلّ يعتصر القلوب منذ أسابيع. ثم فجأة—كأن ستارًا أسود قد انزاح عن المشهد—تبدد كابوس الخوف، وانبثقت من بين الصدور صيحة واحدة، ارتفعت كمدٍّ بشري هادر :

يحيا الأسطول ! هيب... هيب... هورا !

كانت الهتافات كالأمواج، تتلاحق وتتعالى، لا تحمل فقط فرحًا آنياً، بل تعلن انتصارًا نفسيًا مؤقتًا على شبحٍ لم يُرَ بعد، لكنه كان يخيّم على العقول. في تلك اللحظة، لم يكن أحدٌ يريد أن يشك. لم يكن أحد مستعدًا لأن يصدّق أن الأمل الذي وُلد للتو قد يكون هشًّا.

وقف الجنرال بيرسفال، وقد استعاد ملامح الثقة التي كادت أن تغيب عنه في الأيام الماضية. بدا صوته متماسكًا، لكنه كان يحمل نبرةً فيها شيء من الإصرار المبالغ فيه، كمن يقنع الآخرين... أو يقنع نفسه.

قال وهو يبتسم ابتسامة رسمية :

والآن، هل يستطيع أحد - بعد وصول هاتين القطعتين - أن يقترب من سنغافورة ؟

ساد صمتٌ قصير، صمتٌ لا يخلو من رهبة. ثم تابع، بنبرة أكثر دفئًا :

أيها الأصدقاء... يمكنكم أن تنشروا هذا الخبر في صحفكم غدًا. أرجوكم... أدخلوا الطمأنينة في قلوب الناس. إنكم قوةٌ يخشى اليابانيون بأسها. أشكركم.

كانت الكلمات تُقال بثقة، لكنها لم تكن بريئة تمامًا من ظلّ التوتر. كان في عينيه بريقٌ غريب، مزيجٌ من الإيمان والإنكار.

*

خرجنا من القاعة، وما تزال أصداء الهتافات تتردد في آذاننا. التفتت إليّ صديقتي، وقد بدا في عينيها تساؤلٌ لم تستطع الهتافات أن تخمده.

قالت بصوتٍ منخفض :

ما رأيك يا صديقي ؟ هل صدق بيرسفال حين قال إن اليابانيين لن يجسروا على محاولة احتلال سنغافورة ؟

ترددتُ لحظة. لم يكن السؤال عسكريًا فقط، بل كان سؤالًا عن المصير، عن الوهم، عن الإنسان حين يتشبث بما يريد أن يصدّقه.

قلت :

عسكريًا... أقول لكِ إنه على حق.

نظرت إليّ طويلاً، وكأنها تبحث في وجهي عن ما لم أقله .

نحن في أمان إذن ؟

هنا، شعرت بأن الكلمات التي سأقولها لن تكون مجرد إجابة، بل ستكون موقفًا من الحقيقة نفسها.

قلت ببطء :

هذا يتوقف... على ما في ذهن القيادة اليابانية. لا شك أنهم يقدّرون الموقف الجديد بما يستحقه من اهتمام .

لم يعجبها الجواب. كانت تريد يقينًا، لا احتمالًا. كانت مثل الجميع، تريد أن تستريح من التفكير.

ثم قالت فجأة، وكأنها تهرب من القلق :

لماذا لا نذهب إلى الميناء ؟ لنشاهد هاتين القطعتين الرائعتين.

وافقت. ربما لأنني كنت بحاجة أنا أيضًا لأن أرى بعيني ما يُفترض أنه مصدر الطمأنينة.

*

في الطريق إلى الميناء، كانت المدينة قد استعادت وجهها المشرق بسرعة مذهلة. كأن الخوف لم يكن سوى سحابة عابرة. المقاهي تعجّ بالناس، الضحكات ترتفع من كل زاوية، والأنوار تلمع في واجهات السينما والملاهي.

قلت في نفسي :

ما أغرب الإنسان... كيف ينسى الخطر بمجرد أن يُقدَّم له وهمٌ جميل ؟

لكن صوتًا داخليًا آخر ردّ : أو ربما... ليس وهمًا. ربما هو إيمانٌ ضروري للاستمرار.

كنت ممزقًا بين عقلٍ يحلل، وقلبٍ يريد أن يطمئن.

وصلنا إلى الميناء.

كان المكان يعجّ بالحركة، لكن شيئًا ما بدا ناقصًا. نظرت حولي، بحثت بعيني عن تلك الكتلتين العملاقتين اللتين قيل إنهما درع سنغافورة.

لكن... لم تكونا هناك.

تقدمنا نحو قائد الميناء، وسألناه.

قال بهدوء :

خرجتا للمناورة المعتادة... لكنهما قريبتان جدًا من الميناء.

كانت إجابة عادية. منطقية. لا شيء يدعو للقلق.

لكن شيئًا في داخلي لم يهدأ. لماذا لم أشعر بالاطمئنان ؟ لماذا بدت تلك الإجابة... كأنها تخفي أكثر مما تقول ؟

*

عاد الناس إلى حياتهم.

الضحكات، السينما، عروض الأزياء، السهرات... كل شيء عاد كما كان، بل أكثر حيوية، كأن المدينة تريد أن تعوض ما فقدته من طمأنينة.

أما أنا، فكنت أراقب. كنت أرى خلف هذا الفرح شيئًا هشًّا، شيئًا قد ينكسر عند أول صدمة.

وصديقتي... كانت تحاول أن تصدّق.

قالت لي في إحدى الأمسيات :

أتعلم ؟ أظن أننا كنا نبالغ في الخوف. الأمور الآن مختلفة.

نظرت إليها، ولم أرد.

كنت أعلم أن الحقيقة لا تأتي بالتدريج دائمًا... أحيانًا تأتي كضربة واحدة.

*

وبعد ثلاثة أيام فقط... جاءت الضربة.

لم تكن مجرد أخبار. كانت صدمةً تهزّ الروح.

أغارت طائرات الزيرو اليابانية... وأغرقت أمير ويلز وريبالس.

ساد صمتٌ ثقيل. كأن الزمن توقف. كأن المدينة، بكل ضجيجها، فقدت صوتها فجأة.

همست صديقتي :

هذا... مستحيل.

لم أجب. كنت أشعر بأن شيئًا داخلي قد انهار، لكنني لم أستطع تحديده. هل هو الثقة ؟ أم الوهم؟ أم القدرة على التصديق ؟

قال أحدهم بصوتٍ مكسور :

إنهما من أعظم... وأقوى... وأحدث قطع أسطولنا .

كانت الكلمات تتساقط كأوراق ميتة.

*

هرعنا إلى الجنرال بيرسفال.

كان المشهد مختلفًا هذه المرة. لم تكن هناك هتافات. لم يكن هناك وهم جماعي. كان هناك قلق... مكشوف.

تحدث بيرسفال، لكن صوته لم يعد كما كان.

قال :

رغم هذه الخسارة... فمن المستحيل غزو سنغافورة من البحر.

توقف لحظة، ثم أضاف :

ومن المستحيل الوصول إليها من الشمال عبر الغابات... إن ذلك يتطلب مليون جندي على الأقل .

كانت كلماته قوية... لكنها بدت وكأنها تُقال ضد شيءٍ أقوى.

ثم التفت إلى صديقتنا، وقال بصوتٍ حاول أن يبدو مطمئنًا، لكنه لم ينجح تمامًا :

أرأيتِ الحالة يا ابنتي ؟ الموقف ما زال في أيدينا... رغم خسارتنا البحرية.

نظرتُ إلى وجهه .كان هناك شيء جديد.

لم يعد ذلك الرجل الواثق الذي رأيناه قبل أيام. كان هناك شقٌّ صغير في جدار ثقته.

وشعرت فجأة أنني أفهم.

ليست المشكلة في الهزيمة نفسها... بل في ما تكشفه الهزيمة.

تكشف حدود القوة. تكشف هشاشة اليقين. تكشف الإنسان... حين يواجه ما لا يريد أن يراه.

*

خرجنا من عنده.

سارت صديقتي بصمتٍ طويل، ثم قالت :

هل ما زلت تعتقد أننا في أمان؟

توقفت.

نظرت إلى المدينة، التي بدأت ملامحها تتغير من جديد.

قلت :

الأمان... ليس ما نعتقده .

سكتُّ لحظة، ثم أضفت :

الأمان الحقيقي... هو أن نرى الحقيقة كما هي .

نظرت إليّ، وعيناها تحملان مزيجًا من الخوف والفهم.

*

في تلك الليلة، لم أنم. كنت أفكر في كل شيء. في الهتافات ...في الثقة... في الوهم... في الإنسان الذي يحتاج أن يصدّق حتى يعيش.

وسألت نفسي :

هل كنا مخطئين حين صدقنا ؟ أم أننا كنا فقط... بشراً ؟

ثم جاءني الجواب، هادئًا كهمس :

ليست المشكلة في أن نأمل ...بل في أن نحتمي بالأمل من الحقيقة.

وهكذا...

بدأت سنغافورة رحلتها من الوهم إلى المواجهة.

رحلةٌ لا تُقاس بعدد الجنود... بل بقدرة الإنسان على أن يرى... وأن يتحمل ما يرى.

وفي أعماق تلك المدينة، التي كانت تلمع كجوهرةٍ في بحرٍ مضطرب، بدأ سؤالٌ واحد يتشكل :

ماذا يحدث... حين ينهار الوهم ؟

سنغافورة على حافة العطش
حين تكسّرت الإمبراطوريات في غابةٍ لا ترحم

في صباحٍ رماديٍّ أثقلته نُذُرُ الحرب، بدا الأفق كأنّه صفحةٌ ممزّقة من كتاب التاريخ، سُطِّرت عليها كلماتٌ بالدم، لا بالحبر. كان اليوم التالي مختلفًا؛ لا لأن الشمس أشرقت بغير عادتها، بل لأن العالم، كما عرفناه، بدأ يتصدّع بصمتٍ رهيب، يشبه زلزالًا يقع في أعماق الروح قبل أن تهتزّ له الأرض.

جلستُ قبالة صديقتي، أراقب ملامحها التي لم تكن بعدُ تعرف أنّها على وشك أن تستقبل خبرًا سيغيّر وجه العالم. كنتُ أبحث عن الكلمات، لا لأقول الحقيقة فحسب، بل لأروّضها، لأكسوها بشيءٍ من اللطف حتى لا تتحوّل إلى صاعقةٍ تحرق ما بقي من طمأنينة.

قلتُ، متردّدًا، وكأنّي أختبر وقع الحروف قبل أن تنطلق :

أسمعتِ يا صديقتي ؟

رفعت عينيها نحوي، وفيهما فضولٌ بريء :

ماذا هناك ؟

تنهّدت، ثم قلت :

يقولون... إنّ الأمس لم يكن يومًا عاديًا. إنّ طائرات الزيرو اليابانية حطّمت الأسطول البحري الأمريكي في بيرل هاربور.

صمتت لحظة، كأنّها تحاول أن تترجم وقع الكلمات إلى معنى. ثم سألت، ببطءٍ ثقيل :

وما معنى ذلك ؟

ابتسمت ابتسامةً حزينة، كمن يعرف أنّ الإجابة ليست مجرد تفسير، بل إعلان كارثة :

معناه أن اليابان لم تعد قوةً إقليمية فحسب، بل صارت ريحًا لا تُرى، لكنها تقتلع كل شيء. معناه أنّها امتلكت حرية الحركة... برًّا وبحرًا وجوًّا. معناه أنّ آسيا، بكل اتساعها، صارت مسرحًا مفتوحًا لها.

سكتُّ قليلًا، ثم أضفت، وكأنّي أضع الحجر الأخير فوق صدر الحقيقة :

معناه أيضًا... أن سنغافورة ليست بعيدة عن العاصفة.

ارتجفت ملامحها، ليس خوفًا، بل إدراكًا متأخرًا لخطورة اللحظة. قالت :

لكن... البريطانيين هناك، أليسوا أقوياء؟ أليست سنغافورة حصنًا لا يُقهر ؟

ضحكتُ ضحكةً قصيرة، خالية من الفرح :

الحصون يا صديقتي لا تسقط من الخارج فقط... أحيانًا تنهار من داخلها، حين تصدّق أنّها لا تُهزم.

*

في تلك اللحظة، لم أكن أتحدث إليها وحدها، بل كنت أخاطب نفسي أيضًا. كنت أسترجع أخبارًا تسلّلت إلينا من لندن، من وراء الأبواب المغلقة، حيث تُصنع القرارات التي تغيّر مصائر المدن والبشر.

قيل إنّ اجتماعًا سريًا عُقد هناك، وأنّ رئيس الوزراء البريطاني قرّر أمرًا بدا، في ظاهره، عقلانيًا، لكنه كان يحمل في طيّاته بذرة الهزيمة :

لم يعد هناك ما يبرّر المخاطرة بإرسال نجدات إلى سنغافورة إذا قرر اليابانيون غزوها.

كان القرار أشبه بسحب الروح من الجسد، لكن الجسد لا يدرك موته بعد.

ومع ذلك، جاء الخطاب الرسمي مفعمًا بالثقة، بل بالغرور :

إنكم تتفوقون على العدو في كل شيء... الغابات حيّدت الطيران... وأنا على ثقة أن العدو سيعجز عن اختراق خطوطكم.

حين قرأتُ تلك الكلمات، شعرتُ بشيءٍ يشبه الشفقة. ليس على الجنود، بل على القادة الذين صدّقوا أنّ الحرب تُخاض بالتصريحات.

*

قطعت صديقتي شرودي بسؤالٍ مباشر :

ما رأيك أنت ؟

نظرتُ إليها طويلًا، ثم قلت :

ربما يكونون صادقين... من زاويةٍ واحدة فقط.

كيف ذلك ؟

اليابانيون قد لا يخترقون الخطوط من الأمام... لكن من قال إنهم سيأتون من الأمام ؟

ساد صمتٌ ثقيل، ثم قلت، بنبرةٍ فيها شيء من المغامرة :

ماذا لو تسلّلنا... إلى حيث لا ينظرون ؟ إلى الغابات... حيث يتحرك الجنرال الياباني ياماشيتا ؟

نظرت إليّ بدهشة، لكن في عينيها لمعة موافقة :

وهل تظن أنّنا سنجد الإجابة هناك ؟

أظن أننا سنجد... الحقيقة.

*

كانت الغابة عالمًا آخر. لا قوانين فيه إلا البقاء، ولا أصوات إلا همسات الأوراق ووقع خطواتٍ لا تُرى. هناك، حيث تختفي الطرق، وتذوب الحدود بين الإنسان والحيوان، كان اليابانيون يتدرّبون على حربٍ لا يفهمها خصومهم.

وحين التقينا بالجنرال، لم يكن كما تخيّلته. لم يكن صاخبًا ولا متعجرفًا، بل هادئًا، كصيادٍ يعرف أن فريسته لا تراه.

قال لنا، بنبرةٍ واثقة :

القادة البريطانيون يتوقعون أن نهاجم عبر الطرق المعروفة... الطرق التي تعجّ بالمدافع والتحصينات.

ثم ابتسم ابتسامةً خفيفة :

وهذا ما لن نفعله.

تقدّمت صديقتي وسألته :

إذن... كيف ستحاربون ؟

أشار بيده إلى الغابة الممتدة :

هنا. في هذا الجحيم الأخضر.

ثم أضاف :

جنودي لا يسيرون... إنهم يتسلّلون. يتحركون بين الأشجار كما تتحرك القرود، بصمتٍ تام. كل واحدٍ منهم يحمل سلاحه... وبوصلته... وثقته.

كنت أستمع إليه، لكن عقلي كان يرسم المشهد: جنود يخرجون من قلب الظلال، لا من الطرق، يحيطون بالعدو دون أن يُشعروا بوجودهم.

سألت صديقتي :

هل أنت متأكد أن البريطانيين لم يتدرّبوا على هذا النوع من القتال ؟

ضحك، ضحكةً قصيرة، لكنها كانت كافية لتكشف رأيه :

كانوا مشغولين... بأشياء أخرى. الجولف... التنس... الصيد.

ثم صمت لحظة، وأضاف بجدية :

لا أنكر أننا خسرنا رجالًا في تمهيد الطريق... لكن الحرب لا تُقاس بالخسائر، بل بالنتائج.

اقترب قليلًا، وكأنه يهمس بسر :

أصبح لدينا الآن جيشٌ مدرّع... خلف خطوطهم.

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي. لم تكن الخطة مجرد هجوم... بل كانت التفافًا على فكرة الحرب نفسها.

سألتُه :

وماذا عن سنغافورة ؟ أليست جزيرة ؟ يفصلها مضيق مائي ؟

نظر إليّ بثقةٍ لا تعرف التردد :

ألف متر من الماء ؟ هذا ليس عائقًا... بل نزهة.

ثم قال، بنبرةٍ حاسمة :

لن يجدوا مدفعًا واحدًا يطلقونه علينا.

وإذا أطلقوا ؟

تغيّرت ملامحه، وصارت أكثر قسوة :

إذن... سأقتلهم عطشًا.

تجمدت الكلمات في حلقي :

عطشًا ؟

أومأ برأسه :

خزانات المياه... ليست في سنغافورة. إنها في جوهور... تحت سيطرتي الآن.

في تلك اللحظة، أدركتُ أن الحرب لم تعد مجرد بنادق ومدافع... بل صارت صراعًا على أبسط عناصر الحياة.

قال :

أرسلتُ إنذارًا... رحيمًا. أعطيتهم عشرين يومًا لإخلاء المدينة.

سألته صديقتي :

وماذا بعد ذلك ؟

ذأجاب، بلا تردد :

الاستسلام... أو الموت عطشًا.

*

حين خرجنا من عنده، كانت الغابة تبدو أكثر صمتًا... وأكثر تهديدًا. لم يكن الخوف من الجنود، بل من الفكرة: فكرة أن مدينةً كاملة يمكن أن تُهزم... ليس بالقوة، بل بالحرمان.

قلتُ لصديقتي :

أتعلمين ما هو أخطر ما في الأمر ؟

ماذا ؟

أنهم لم يخطئوا فقط في تقدير العدو... بل أخطأوا في فهم الحرب نفسها.

سكتُّ قليلًا، ثم أضفت :

حين يظنّ الإنسان أن تفوقه دائم... يصبح أعمى.

*

لم تمضِ أيامٌ كثيرة حتى جاءت النهاية، كما توقعها ياماشيتا. لم تُطلق سنغافورة رصاصةً واحدة. لم تُخض معركةً تليق بسمعتها.

استسلمت.

بهدوءٍ مخيف، كمدينةٍ قررت أن تنام... إلى الأبد.

وفي تلك اللحظة، لم تسقط سنغافورة وحدها، بل سقطت فكرة كاملة عن القوة، عن الإمبراطورية، عن السيطرة.

انفتح الباب... على المحيط الهندي وبحر الصين. ولم يعد العالم كما كان.

في داخلي، ظلّ صوتٌ يهمس :

الحروب لا تُحسم دائمًا بالسلاح... بل بالعقل الذي يعرف أين يضرب، ومتى.

وربما، أيضًا... بالعطش.